

الداء والدواء

اللقاء السابع والعشرون

﴿٣١﴾ وَكَذَلِكَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقٌّ قَدْرِهِ مِنْ هَانَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فَعَصَاهُ، وَهَيْبُهُ فَارْتَكَبَهُ، وَحَقُّهُ فَضَيَّعَهُ، وَذِكْرُهُ فَأَهْمَلَهُ، وَعَقَلَ قَلْبُهُ عَنْهُ، وَكَانَ هَوَاهُ آثَرَ عِنْدَهُ مِنْ طَلَبِ رِضَاهُ، وَطَاعَةِ الْمَخْلُوقِ أَهَمَّ مِنْ طَاعَتِهِ، فَلِلَّهِ الْفُضْلَةُ مِنْ قَلْبِهِ وَقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ، هَوَاهُ الْمُقَدَّمُ فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُ الْمُهِمُّ عِنْدَهُ، يَسْتَحِفُّ بِنَظَرِ اللَّهِ إِلَيْهِ، وَاطَّلَاعِهِ عَلَيْهِ بِكُلِّ قَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ، وَيَسْتَحِي مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ، وَيَخْشَى النَّاسَ وَلَا يَخْشَى اللَّهَ، وَيُعَامِلُ الْخَلْقَ بِأَفْضَلِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَامَلَ اللَّهُ عَامَلَهُ بِأَهْوَنَ مَا عِنْدَهُ وَأَحْفَرِهِ، وَإِنْ قَامَ فِي خِدْمَةِ مَنْ يُحِبُّهُ مِنَ الْبَشَرِ قَامَ بِالْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ وَبِذَلِ النَّصِيحَةِ، وَقَدْ أَفْرَغَ لَهُ قَلْبُهُ وَجَوَارِحُهُ، وَقَدَّمَهُ عَلَى الْكَثِيرِ مِنْ مَصَالِحِهِ، حَتَّى إِذَا قَامَ فِي حَقِّ رَبِّهِ - إِنْ سَاعَدَ الْقَدْرُ - قَامَ قِيَامًا لَا يَرْضَاهُ مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ، وَبَدَلَ لَهُ مِنْ مَالِهِ مَا يَسْتَحِي أَنْ يُوَاجِهَ بِهِ مَخْلُوقًا مِثْلَهُ، فَهَلْ قَدَرَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ مِنْ هَذَا وَصَفُهُ؟

﴿٣٢﴾ وَهَلْ قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ شَارَكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ فِي مَحْضِ حَقِّهِ مِنَ الْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّطَاعَةِ وَالدُّلِّ، وَالْخُضُوعِ، وَالْخَوْفِ، وَالرَّجَاءِ؟ فَلَوْ جَعَلَ لَهُ مِنْ أَقْرَبِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ شَرِيكًا فِي ذَلِكَ لَكَانَ ذَلِكَ جَرَاءَةً وَتَوْتُبًا عَلَى مَحْضِ حَقِّهِ وَاسْتِهَانَةً بِهِ وَتَشْرِيكًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، وَلَا يَنْبَغِي وَلَا يَصْلُحُ إِلَّا لَهُ سُبْحَانَهُ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا شَرَكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ أَبْغَضَ الْخَلْقِ إِلَيْهِ، وَأَهْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَمَقَّتْهُمْ عِنْدَهُ، وَهُوَ عَدُوُّهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ؟ فَإِنَّهُ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَأْمَأَعْهَدُ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ - وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [سُورَةُ يَس: ٦٠ - ٦١] .

﴿٣٣﴾ وَلَمَّا عَبَدَ الْمُشْرِكُونَ الْمَلَائِكَةَ بِرِعْمِهِمْ وَقَعَتْ عِبَادَتُهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لِلشَّيَاطِينِ، وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَخْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهُولَاءُ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ - قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سُورَةُ سَبَأ: ٤٠ - ٤١] .

﴿٣٤﴾ فَالشَّيْطَانُ يَدْعُو الْمُشْرِكَ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَيُوهِمُهُمْ أَنَّهُ مَلَكٌ، وَكَذَلِكَ عُبَادُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ، يَزْعُمُونَ إِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ رُوحَانِيَاتِ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ وَهِيَ الَّتِي تُخَاطِبُهُمْ، وَتَقْضِي لَهُمُ الْحَوَائِجَ، وَهَذَا إِذَا طَلَعَتْ

الشَّمْسُ قَارَهَا الشَّيْطَانُ، فَيَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، فَيَقْعُ سُجُودَهُمْ لَهُ، وَكَذَلِكَ عِنْدَ غُرُوبِهَا، وَكَذَلِكَ مَنْ عَبَدَ الْمَسِيحَ وَأُمَّهُ لَمْ يَعْبُدْهُمَا وَإِنَّمَا عَبَدَ الشَّيْطَانَ.

☞ وهو أول ما نطق به عليه السلام وهو في المهد قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (مریم: 30)، دعا قومه إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وإبليس يزين لاتباعه أنهم يعبدون عيسى عليه السلام وفي الحقيقة هم يعبدون الشيطان ويطيعوه...

← فَإِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَعْبُدُ مَنْ أَمَرَهُ بِعِبَادَتِهِ وَعِبَادَةَ أُمِّهِ، وَرَضِيهَا لَهُمْ وَأَمَرَهُمْ بِهَا، وَهَذَا هُوَ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ، لَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَتَزَلَّ هَذَا كُلُّهُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ - وَإِنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ .

☐ فَمَا عَبَدَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ غَيْرَ اللَّهِ كَاتِبًا مَنْ كَانَ إِلَّا وَقَعَتْ عِبَادَتُهُ لِلشَّيْطَانِ، فَيَسْتَمْتِعُ الْعَابِدُ بِالْمَعْبُودِ فِي حُصُولِ غَرْضِهِ، وَيَسْتَمْتِعُ الْمَعْبُودُ بِالْعَابِدِ فِي تَعْظِيمِهِ لَهُ، وَإِشْرَاكِهِ مَعَ اللَّهِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ رِضَا الشَّيْطَانِ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أَي: مِنْ إِعْوَانِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ ﴿وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١٢٨].

☐ فَهَذِهِ إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ إِلَى السِّرِّ الَّذِي لِأَجَلِهِ كَانَ الشِّرْكَ أَكْبَرَ الْكِبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ بِغَيْرِ التَّوْبَةِ مِنْهُ، وَأَنَّهُ يُوجِبُ الْخُلُودَ فِي الْعَذَابِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ تَحْرِيمُهُ وَقُبْحُهُ بِمَجَرَّدِ النَّهْيِ عَنْهُ، بَلْ يَسْتَحِيلُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَشْرَعَ لِعِبَادِهِ عِبَادَةَ إِلَهٍ غَيْرِهِ، كَمَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ مَا يُنَاقِضُ أَوْصَافَ كَمَالِهِ، وَتُعَوَّتَ جَلَالِهِ، وَكَيْفَ يُظَنُّ بِالْمُنْفَرِدِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ وَالْعِظَمَةِ وَالْإِجْلَالِ أَنْ يَأْذَنَ فِي مُشَارَكَتِهِ فِي ذَلِكَ، أَوْ يَرْضَى بِهِ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ عَلُوًّا كَبِيرًا.

﴿فَصَلِّ الشِّرْكَ وَالْكَبِيرُ﴾

☐ فَلَمَّا كَانَ الشِّرْكَ أَكْبَرَ شَيْءٍ مُنَافَاةً لِلْأَمْرِ الَّذِي خَلَقَ اللَّهُ لَهُ الْخَلْقَ، وَأَمَرَ لِأَجَلِهِ بِالْأَمْرِ، كَانَ مِنْ أَكْبَرَ الْكِبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ.

☐ وَكَذَلِكَ الْكَبِيرُ وَتَوَابِعُهُ كَمَا تَقَدَّمَ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ وَأَنْزَلَ الْكِتَابَ لِتَكُونَ الطَّاعَةُ لَهُ وَحْدَهُ، وَالشِّرْكَ وَالْكَبِيرُ يُنَافِيَانِ ذَلِكَ.

﴿حَخَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ قَالَ -Y-: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)...

﴿﴾ قال ابن القيم: (كَلِمَةٌ قَامَتْ بِهَا الْأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ، وَخُلِقَتْ لِأَجْلِهَا جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَبِهَا أُرْسِلَ اللهُ تَعَالَى رُسُلُهُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ، وَشَرَعَ شَرَائِعَهُ، وَأَلْجَلَهَا نُصِبَتِ الْمَوَازِينُ، وَوُضِعَتِ الدَّوَابُّ، وَقَامَ سُوقُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَبِهَا انْفَسَمَتِ الْخَلِيقَةُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَفَّارِ وَالْأَبْرَارِ وَالْفَجَّارِ، فَهِيَ مَنْشَأُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ وَالنَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَهِيَ الْحَقُّ الَّذِي خُلِقَتْ لَهُ الْخَلِيقَةُ، وَعَنْهَا وَعَنْ حُفُوفِهَا السُّؤَالُ وَالْحِسَابُ، وَعَلَيْهَا يَقَعُ النَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَعَلَيْهَا نُصِبَتِ الْقَبْلَةُ، وَعَلَيْهَا أُسِّسَتِ الْمِلَّةُ، وَأَلْجَلَهَا جُرِّدَتِ سِيُوفُ الْجِهَادِ، وَهِيَ حَقُّ اللهِ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ....

□ وَلِذَلِكَ حَرَّمَ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى أَهْلِ الشِّرْكِ وَالْكَبْرِ، فَلَا يَدْخُلُهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ.

□ أن المتكبر قدوته الشيطان، قال الله تعالى عنه لما أبى أن يسجد لآدم عليه السلام: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) [البقرة:34].

- أن الله لا يحب المتكبرين، قال سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) [لقمان:18].

- أن المتكبر في النار - والعياذ بالله - قال -p-: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" رواه مسلم.

- أن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان، فيساقون إلى سجن في جهنم يقال له: بُؤَس، تعلوهم نار الأنبار، يُسْقون عصارة أهل النار طينة الخبال. روى ذلك أحمد والترمذي، وصححه مرفوعاً.

- وقد نهي الإسلام عن إسبال الثياب، والتفاخر بالأحساب ونحوها، لأنها تدل على الكبر لدى فاعلها. -وقد أمر الإسلام بالتواضع للمسلمين، قال تعالى: (وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) [الحجر:88]، وقال -p-: "ما تواضع أحد لله إلا رفعه" رواه مسلم، وقال أيضاً: "إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد" رواه مسلم.

كهر والإسلام يدعو إلى مكارم الأخلاق، وينهى عن سيئها، وهو دين الألفة والمحبة والرحمة والإخاء والتبازل والتناصر، والكبر يتنافى مع كل هذه المعاني.

[فَصْلُ الْقَوْلِ عَلَى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ]

□ وَيَلِي ذَلِكَ فِي كِبَرِ الْمَفْسَدَةِ: الْقَوْلُ عَلَى اللهِ بِلَا عِلْمٍ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَوَصْفُهُ بِضِدِّ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَهَذَا أَشَدُّ شَيْءٍ مُنَافِضَةً وَمُنَافَاةً لِكَمَالِ مَنْ لَهُ الْخَلْقُ

وَالْأَمْرُ، وَقَدْ حُجِّجَ فِي نَفْسِ الرُّبُوبِيَّةِ وَحَصَائِصِ الرَّبِّ، فَإِنْ صَدَرَ ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ فَهُوَ عِنَادٌ أَقْبَحُ مِنَ الشِّرْكِ، وَأَعْظَمُ إِثْمًا عِنْدَ اللَّهِ.

□ فَإِنَّ الْمُشْرِكَ الْمُقَرَّرَ بِصِفَاتِ الرَّبِّ خَيْرٌ مِنَ الْمُعْطَلِ الْجَائِدِ لِصِفَاتِ كَمَالِهِ، كَمَا أَنَّ مَنْ أَقَرَّ لِمَلِكٍ بِالْمُلْكِ، وَمَنْ يَجْحَدُ مُلْكَهُ وَلَا الصِّفَاتِ الَّتِي اسْتَحَقَّ بِهَا الْمُلْكَ، لَكِنْ جَعَلَ مَعَهُ شَرِيكًا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، يُعَرِّبُهُ إِلَيْهِ، خَيْرٌ مِمَّنْ جَحَدَ صِفَاتِ الْمَلِكِ وَمَا يَكُونُ بِهِ مَلَكًا، وَهَذَا أَمْرٌ مُسْتَقَرٌّ فِي سَائِرِ الْفِطْرِ وَالْعُقُولِ.

□ فَأَيُّنَ الْقُدْحِ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجُحْدِ لَهَا، مِنْ عِبَادَةِ وَسِطَةِ بَيْنِ الْمَعْبُودِ الْحَقِّ وَبَيْنِ الْعَابِدِ، يَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِعِبَادَةِ تِلْكَ الْوَاسِطَةِ إِعْظَامًا لَهُ وَإِجْلَالًا؟

□ فَدَاءُ التَّعْطِيلِ هَذَا الدَّاءُ الْعُضَالُ الَّذِي لَا دَوَاءَ لَهُ، وَهَذَا حَكَى اللَّهُ عَنْ إِمَامِ الْمُعْطَلَةِ فِرْعَوْنَ، أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَى مُوسَى مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أَنَّ رَبَّهُ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ، فَقَالَ: { يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِّحًا لَعَلِّي أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ - أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَاطَّلِعْ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأُطِنُّهُ كَاذِبًا } [سُورَةُ غَافِرٍ: ٣٦ - ٣٧].

وهو واحتج الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتبه على المعطلة بهذه الآية.

□ وَاقْدَرْنَا دَكْرًا لَفْظُهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْكِتَابِ. وَالْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ وَالشِّرْكَ مُتَلَاذِمَانِ. وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْبِدْعُ الْمُضِلَّةُ جَهْلًا بِصِفَاتِ اللَّهِ وَتَكْذِيبًا بِمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَأَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنَادًا وَجَهْلًا - كَانَتْ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ، وَإِنْ قُصِرَتْ عَنِ الْكُفْرِ وَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنْ كِبَارِ الذُّنُوبِ.

□ كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْبِدْعَةُ أَحَبُّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ: لِأَنَّ الْمَعْصِيَةَ يُتَابُ مِنْهَا وَالْبِدْعَةَ لَا يُتَابُ مِنْهَا.

□ وَقَالَ إِبْلِيسُ: أَهْلَكْتُ بَنِي آدَمَ بِالذُّنُوبِ وَأَهْلَكُونِي بِالْإِسْتِعْفَارِ وَبِلَا إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ بَثْتُ فِيهِمُ الْأَهْوَاءَ، فَهُمْ يُذْنِبُونَ وَلَا يَتُوبُونَ، لِأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا.

□ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَذْنِبَ إِذَا ضَرَّرَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَمَّا الْمُبْتَدِعُ فَضَرَّرَهُ عَلَى النَّوْعِ، وَفِتْنَةُ الْمُبْتَدِعِ فِي أَصْلِ الدِّينِ، وَفِتْنَةُ الْمَذْنِبِ فِي الشَّهْوَةِ، وَالْمُبْتَدِعُ قَدْ قَعَدَ لِلنَّاسِ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ يَصُدُّهُمْ عَنْهُ، وَالْمَذْنِبُ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَالْمُبْتَدِعُ قَادِحٌ فِي أَوْصَافِ الرَّبِّ وَكَمَالِهِ، وَالْمَذْنِبُ لَيْسَ كَذَلِكَ.

□ وَالْمُبْتَدِعُ يَقْطَعُ عَلَى النَّاسِ طَرِيقَ الْآخِرَةِ، وَالْعَاصِي بَطِيءُ السَّيْرِ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِ.